بابلو بيكاسو

عاشق فى الثمانين

يقال : إن الفنان يحتاج دائمًا للحب لكى يبدع ! وهذا بالتأكيد ما أثبته لنا الفنان والرسام العالمى " بابلو بيكاسو " فبيكاسو لم يستطع يومًا واحدًا فى حياته أن يعيش بدون حب يجدد له شبابه ويعطيه الطاقة للإبداع أكثر فأكثر .

وبيكاسو من الشخصيات التى أبدعت فى الفن والحب معًا، وكان انعكاس حالته العاطفية يظهر واضحًا فى لوحاته ورسوماته من حيث حالات السعادة أو الشقاء فى الحب.

ولد بيكاسو فى مدينة ملقا على الساحل الجنوبى لأسبانيا فى عام ١٨٨١م فكان ابنًا وحيدًا لأسرة عريقة ترجع أصولها للقرن السادس عشر، ومنذ نعومة أظافره لم يكن بيكاسو يهتم بشيء عدا الرسم والألوان ففى سن العاشرة قام برسم لوحات مذهلة توحى أن من رسمها فنان متمرس وليس طفلاً فى العاشرة من عمره .

وبدأت أسرة بيكاسو تلاحظ هذه الموهبة الفريدة التى تتضح جليًّا فى بيكاسو، فقد كان والده "دون جوسيه" فنانًا فاشلاً ، بائسًا لم ينجح فى مجال الفن ، فعمل على أن يصقل موهبة ابنه الوحيد ، ويرشده إلى الطريق الصحيح حتى لا يقع فى نفس الأخطاء التى وقع هو فيها !

وعندما أصبح بيكاسو شابًا يافعًا انتقلت أسرته إلى برشلونة فكانت هناك فرصة عظيمة لبيكاسو للدراسة فى برشلونة ومدريد، وعلى الرغم من هذه الفرصة كان بيكاسو ينتظر الفرصة الأكبر ، وهى زيارته لباريس ، وبالفعل جاءت الفرصة ، وكانت أول زيارة لباريس فى عام ١٩٠٠ م ، وأحس بيكاسو فى هذه الزيارة أنه تائه ، ويرجع هذا الإحساس إلى أن بيكاسو لم يكن يتقن اللغة الفرنسية .

كرر بيكاسو زياراته إلى باريس عدة مرات خلال أربع سنوات حتى أحس أنه على أتم الاستعداد لأن يصبح جزءا من هذا العالم .

وجد بيكاسو شقة صغيرة بحى بلاتده لافوار فى شارع رافيين فى بناية قديمة توشك على السقوط ، ولا يوجد بها كهرباء أو غاز ، أما المياه فكان هناك صنبور واحد فقط لخدمة البناية بكاملها ، يتقابل أمامه معظم سكان البناية .

وفى يوم من الأيام ، وأمام هذا الصنبور قابل بيكاسو فتاة أحلامه ،فتاة جميلة ، فاتنة ، تدرس فى مدرسة بو لـلآداب تدعى " فيرناند أوليفر " وقع بيكاسو فى حبها ، بادلته هى نفس الشعور واعتبر الاثنان هذه التجربة العاطفية تجربة حقيقية بعد مرورهما بعدة علاقات عابرة ، وأحست فيرناند أن علاقتها ببيكاسو سوف تكون مختلفة تمامًا عما سبق.

فى هذه المرحلة بدأ بيكاسو الشعور بالحرية فى كل شيء حتى فى ملابسه ؛ فقد كان يلبس مثل عمال المصانع رباط عنق على رقبته ، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع بيكاسو أن يمحو اللمحة الأرستقراطية التى كان يتمتع بها.

انتقلت فيرناند لتعيش مع بيكاسو بعد أن ارتبط بها. كانت حياتهما فقيرة جدًا ولكن ذلك لم يزعج فيرناند أبدًا ، وكان بيكاسو شديد الغيرة عليها ، وكما هى طبيعة الرجل الأسبانى الصميم لم يكن يريدها أن تقابل أى رجل إلا فى وجوده .

وعندما نريد أن نصف شقة بيكاسو ، و فيرناند لن نجد أدق من كلمة "حقيرة" فكل شيء حولهما رث ، وبال ، وأعقاب السجائر على الأرض فى كل مكان بالإضافة إلى كميات الخردة التى لا يستطيع بيكاسو مقاومة شرائها من أسواق الدرجة الثانية ، ودليل على شدة الفقر الذى كانا يعيشان فيه .. إنه عندما أراد رسم لوحة سلة الزهور رسم الزهور بجميع الألوان ما عدا اللون الأبيض ، لأنه لم يكن معه نقود لشراء أنبوب اللون الأبيض ، ولكن بيكاسو وفيرناند عاشا سعيدين فرحين بحياتهما وحبهما ، وفى هذه الفترة رسم بيكاسو العديد من لوحاته العظيمة وخاصة فى " المرحلة الزرقاء " وعلى الرغم من ذلك فلم يستطع بيكاسو أن يجنى سوى

القليل من الفرنكات ، وبالرغم من قسوة الحياة فقد كانا دومًا يضحكان ، ويغنيان ، ويتقابلا مع أصدقائهما الفنانين الذين يخففون عنهما قسوة الحياة .

ظل بيكاسو على هذا الحال حتى قابل تاجر اللوحات الشهير فالار وقد أعجبته أعمال بيكاسو كثيرًا ، وقام بشراء ثلاثين لوحة ودفع له مبلغ ٢٠٠٠ فرنك .

انتشر الخبر فى الوسط الفنى فأصبح أصدقاء بيكاسو يلقبونه بالـ "Maitre" أى " المعلم " فالعلاقة بـ " فالين " تعنى الأمان .

وفى خريف عام ١٩٠٩ م انتقل بيكاسو وفيرناند إلى شقة جديدة مريحة فى شارع (البوليفار) (Boulevard) حيث تمتعا هناك بالمياه الساخنة والكهرباء .

وفجأة تغيرت فيرناند إلى شخصية أخرى لها تطلعات جديدة، فقد أصبحت تعشق شراء الفساتين الفاخرة ، والقبعات والفرو الطبيعى ، وفى يوم قامت بإنفاق مصروف المنزل فى شراء زجاجة من العطر غالى الثمن ، وقامت أيضًا بتعيين خادم بصفة دائمة للقيام بالأعمال المنزلية .

وبعد فترة من هذا التغيير بدأت تظهر بينهما الخلافات والمصالحات مما جعل بيكاسو يشعر بالحنين لأيامهم السابقة معًا وهنا أيضًا بدأت أول إبداعات بيكاسو من اللوحات التكعيبية .

فى صيف ١٩١٢م زارت فيرناند صديقة قديمة لها تدعى مارسيل قدمتها فيرناند إلى بيكاسو فوقع فى حبها بيكاسو من النظرة الأولى ، فقد كانت فتاة جميلة ، جذابة ومن أسرة راقية ، وبعد فترة قصيرة أحست

فيرناند أن بيكاسو لم يعد مخلصًا لها ، فهجرته محاولة إثارة غيرته، فأقامت علاقة مع الرسام الإيطالى Ubaldo oppi ، إلا أن بيكاسو شعر بالراحة والحرية عندما رحلت فيرناند وبعدت عنه، وقام بيكاسو بحزم أمتعته ، وسافر مع مارسيل إلى كريت، وكانت متعتهما كبيرة حتى ظهر العديد من الأصدقاء الذين لحقوا بهما ليتابعوا تطور العلاقة العاطفية الجديدة فى حياة صديقهم بيكاسو .

لحقت بهم فيرناند يملؤها الندم واليأس ، ولكن بعد فوات الأوان، ومن ثم أخذ بيكاسو مارسيل ، وعاد إلى Avignon لكى يضع حدًا لعلاقته بفيرناند، وبالفعل فهمت فيرناند الرسالة.

بعد عدة سنوات علم بيكاسو أن فيرناند مريضة ، وتمر بأزمة صحية ومادية أيضًا فأرسل لها مليون فرنك ، لتتلقى علاجًا سليمًا ولم يلتقيا أبدًا مرة أخرى حتى توفيت فيرناند وحيدة فى شقتها فى عام ١٩٦٦م، ظهرت آثار السعادة التى عاشها بيكاسو مع مارسيل فى العديد من أعماله ، ولكن هذه السعادة لم تدم طويلاً ، فقد أصيبت مارسيل بداء السل وماتت عام ١٩١٦م ، وشعر بيكاسو بالحزن الشديد لخسارته حبيبته التى كانت تشعره بالحب والسعادة وفقد بيكاسو رغبته فى العمل ، ومما زاد من إحساسه بالحزن أن والده أيضًا توفى فى نفس العام وأصبح بيكاسو وحيدًا، حتى إن أصدقاءه تطوع معظمهم فى الحرب. أصبح يفضل الجلوس بمفرده على المقاهى ، ولا يشعر بالرغبة فى أن يعود لمنزله ، المنزل الذى جمعه بمارسيل واضطر بيكاسو للانتقال لشقة أخرى بشارع فيكتور هوجو فى مونتروج .

وبعد فترة قابل بيكاسو سيدة تدعى Jean cocteau وحاولت هذه السيدة إقناع بيكاسو بعمل ديكورات وأزياء مسرحية معاصرة ستعرض على مسرح Diaghilev للباليه الروسى ، كانت الفكرة غريبة على بيكاسو حتى قام بزيارة Cocteau فى روما وشاهد البروفات فتحمس للفكرة ، وبدأ عقله الخصب يبدع، وكان هذا العمل بمثابة إنقاذ لبيكاسو من حالة اليأس التى كان يعانى منها .

فى إحدى البروفات التى كان يحضرها بيكاسو بانتظام ، قابل راقصة الباليه Olga Koklova وهى روسية وعضو فى الباليه الروسى ، كانت Olgaتمتاز بالجمال، البساطة، وكانت طبيعتها طفولية، وهذا أثار اهتمام بيكاسو بها، وكان بيكاسو فى هذه الفترة يبحث عن الاستقرار العاطفى بعد الظروف التى مر بها، وكانت Olga أيضًا تحلم بحياة مستقرة ، راقية ، ووضع ذى أهمية فى المجتمع كما وعدها بيكاسو دون أن تلاحظ طبيعة بيكاسو الحرة ، وبوهيميته التى سببت العديد من المشاكل فى المستقبل.

بدأت حياتهما سعيدة مستقرة ، لم يعكر صفوها أى شىء ، حتى إن بيكاسو أخذ Olga ، وسافر إلى برشلونة ليقدمها إلى أسرته وتم استقبالها على أحسن مستوى ، ولكن والدته لفتت نظر Olga لطبيعة بيكاسو قائلة : " إننى لا أظن أن أى امرأة تستطيع أن تكون سعيدة معه ، أو أن تتكيف مع أسلوب حياته " .

تزوج بيكاسو من Olga عام ١٩١٨م وشهد على عقد الزواج Diaghilev والشاعر Apollinaire ولإسعاد زوجته حاول بيكاسو الاندماج فى المجتمعات الراقية، وانتقلا أيضًا إلى حى راقٍ بجوار الـ Elyseés

(الإليزيه)، وبطبيعة الحال دفع الحب بيكاسو إلى مرحلة جديدة من الفن والإبداع ، فبهر العالم بلوحاته ورسوماته الجديدة.

رزق بيكاسو بطفل أسماه Paolo فى عام ١٩٢١م وقد رسم له العديد من الصور البديعة .

بعد فترة قصيرة لم يشعر بيكاسو بالراحة فى منزله ، فقد كان كل شىء مرتبًا ومنظمًا ونظيفًا ، وكانت طبيعة Olga راقية جدًا تتعارض مع طبيعة بيكاسو البوهيمية ، ولذلك قام بيكاسو باستئجار شقة فى نفس البناية ليستطيع أن يعيش حريته ، ويرمى أعقاب السجائر على الأرض ويعود لشراء ما يستطيع من الخردة .

وفى عام ١٩٢٤م بدأت تظهر " الحركة السريالية " فى الفن ، وقد تأثر بيكاسو فى هذه الفترة بتلك الحركة، وظهر ذلك فى لوحاته ، فبدأ برسم لوحات غريبة ، حيث يظهر فيها الإنسان بعدة رؤوس وعشرات الأرجل والعيون، وهكذا .. وأصبح يتجه لهذا الأسلوب كلما واجه مصاعب فى الحياة.

كثرت الخلافات بين بيكاسو وأولجا وأحس بيكاسو أن حياته الأسرية على وشك الانهيار ، وفى أثناء هذه العاصفة قابل بيكاسو فتاة جميلة تدعى Marie therese ووقع فى غرامها ، وقد ظهرت Marie فى عدة لوحات لبيكاسو، منها لوحة Femme au fauteuil.

فى عام ١٩٣٥م ترك بيكاسو " أولجا " للأبد بعد حياة استمرت ١٧ عامًا، وفى نفس العام رزق بابنته ماريا .

ظلت أولجا تطارده فى كل مكان ، ولم يستطع أن يتحرر منها فعليًا إلا بعد عدة سنوات .

مر بيكاسو بمرحلة غريبة فى حياته وهى وجود متنافستين فى حياته ، هما Marie وفتاة تدعى Dora maar قابلها بيكاسو فى قهوة شهيرة بباريس، وكانت تعمل مصورة فوتوغرافية وصحفية، وقد ساعدت Dora بيكاسو كثيرًا فى حياته الفنية حيث قامت بكتابة مقالات عنه ، وعن لوحاته ، وعرفته بالعديد من المصورين المشهورين، مثل Man Ray و Andre Breton.

أصبحت حياة بيكاسو فى هذه المرحلة أشبه بالمسرحية الهزلية ، فلديه الآن حبيبتان تتنافسان على حبه ، ولديه أولجا التى مازالت زوجته طبقًا للقانون الأسبانى ، ولكن من الواضح أن بيكاسو كان سعيدًا بما يحدث.

وفى النهاية استقر بيكاسو على Dora وانتقل معها إلى شقة فاخرة بشارع Grand Augustins وهذه المرحلة مثلت المرحلة التراجيدية فى لوحات بيكاسو والتى وصلت لقمة عظمتها فى هذه الفترة.

حدثان سياسيان أثرا على أعمال بيكاسو، فقد كان بيكاسو جزءا لا يتجزأ من المجتمع ، لقد تأثر بيكاسو بالحرب الأهلية الأسبانية التى اندلعت عام ١٩٣٦م والاتجاه الفاشى الذى أدى لاندلاع الحرب العالمية الثانية ، وقام بيكاسو بتقديم الدعم المادى فى خلال الحرب الأهلية ، وباع عددًا من لوحاته لصالح مؤسسات الأطفال واللاجئين .

أصيب بيكاسو بالحزن الشديد خاصة عندما قذفت الفاشية الأسبانية بمساعدة الطائرات النازية مدينة Basque ورأى ذعر المدنيين وقد صور هذا

فى لوحة Guernica وهى تعتبر من أعظم اللوحات التى رسمها بيكاسو على الإطلاق .

وفى خلال سنوات الحرب لم يغادر بيكاسو منزله إلا مرات قليلة وبدأت Dora تشعر بالملل وتسأم هذه الحياة الكئيبة ، وقبل انتهاء الحرب أحب بيكاسو فتاة تبلغ من العمر ٢١ عامًا وبيكاسو فى هذا الوقت عمره ٦٠ عامًا ولايزال يتمتع بشبابه وصحته وقوته ومظهره الأنيق، وقع بيكاسو فى حب Francois عام ١٩٤٣م و هى رسامة صغيرة ، سحرته بجمالها وموهبتها، وبادلته الحب و الإعجاب ، واعتبرته أستاذها. وفى عام ١٩٤٦م انتقلت Francois لتعيش معه فى الـ Cote d' Azur .

وهنا أصيبت Dora بمرض نفسى شديد ، دفعها إلى التخيلات والهلاوس، وحاول بيكاسو علاجها فى أحد المراكز المتخصصة ، ولكن بلا جدوى ! بل وإنها اتهمته بأنه سبب كل ما حدث لها .

انتقل بيكاسو مع Francois فى نهاية عام ١٩٤٨م إلى منزل يدعى La Galloise بالقرب من Vollauris ، والآن بيكاسو أصبح فنانًا عالميًا له مكانته الفنية فى المجتمعات وحول العالم أجمع وأصبحت Francois أمًا لأولاده Paloma و Claude ولكنها غير سعيدة بحياتها مع بيكاسو فقررت الرحيل عام ١٩٥٣م مع أولادها إلى باريس لتبدأ حياة جديدة هناك .

وبطبيعة الحال وكما لاحظنا أن بيكاسو لا يستطيع العيش بدون حب ، فالحب فى حياة بيكاسو هو الدافع للإبداع والإلهام !

قابل بيكاسو آخر حب فى حياته وهى Jacqueline Roque فتاة لطيفة، محبة ، مطيعة ، أحبت بيكاسو بجنون، وهيأت له منزلاً مريحًا ، فقد

كانت ربة منزل ماهرة ، أمتعته بوجبات شهية ، ونظمت له أعماله ومواعيده ومعاملاته مع البنوك والمعارض وتجار اللوحات والناشرين وأصبحت " مايسترو حياته " .

وفى عامه الـ ٧٤ كان بيكاسو أكثر نشاطًا من ذى قبل ، فقد كان يتمتع بصحة جيدة ونشاط ، يمارس حياته فى منزل جميل يطل على مناظر خلابة ، ويمارس السباحة ، يتردد على المطاعم الشهيرة ويتقدم أيضًا فى عمله بخطى ثابتة .

وفى عامه الـ ٨٠ قام برقص رقصة الفلامنكو فوق المنضدة فى حفل جمعه بأصدقائه ، وظهر فى هذا الحفل بمنتهى الحيوية والنشاط ، وتزوج بيكاسو Jacqueline وكانت الأخيرة فى صف حبيباته أو تقريبًا الأخيرة، فقد كان بيكاسو يعتبر أن الموت فتاة ويعلم أن هناك دائمًا فتاة مًا بانتظاره !